مصير التمدن

مترجمة باوجاز من كتاب هنري جورج الكاتب الاميركي الشهير بقلم نسيم افندي برباري

(تابع ما قبله)

متى صار التمثال اجراء في الارض وحصر ريعها بملاكها كما ذكرنا في الجزء الماضي زالت المساواة من بين الناس وعاد التمدن القهقرى لان جمهور الناس يضطرُّ حينئذٍ الى الكدح نهارًا وليلاً لتحصيل قوته الضروري فلا تبقى لهُ فرصة لتثقيف عقله. والذين احتكروا الارض والثروة يصيرون يفكرون نهارًا وليلاً في استنباط الاساليب ألتي تبقي الفقراء في فقرهم لئلاَّ يغتنوا ويزاحموهم . فيزيد استمساك العامة بالعادات القديمة ويشتدُّ نفورهم من كل اصلاح جديد وينتشر رواق الجهل وتضرب اطناب الاوهام

ومن راجع تاريخ الامم الغابرة حيث نشأ العمران وسار شوطًا طويلاً رأى ان المصاعب كانت تزداد بازدياده حتى انتهى تمدُّن تلك الامم الى أوْجهِ فوقف هنالك ثم مال الى الانحطاط . والشعب اذا بلغ هذه الدرجة لم ينقسم على نفسهِ لان الجهل والخمول يكونان قد تمكَّنا منهُ ولكن اذا هاجمهُ شعب آخر حينئذٍ وقع في يدهِ غنيمة باردة فيخضع لهُ حالاً لاعتيادهِ الذل والانقياد الاعمى واذا اقتصر المهاجمون على التربُّع في المناصب العليا كما فعل الملوك الرعاة في بلاد مصر والتتر في بلاد الصين بقيت اموره سائرة كما كانت واما اذا عاثوا في البلاد ونهبوها انقرض التمدُّن وعفت معالمهُ

ويختلف التمدُّن الاوربي عن التمدن الاسيوي والمصري القديم بانهُ نتيجة اتحاد شعوب مختلفة لكل منها اوصاف خاصَّة . وانقسامهم الى فرق مختلفة منع تجمع القوة في فريق منهم دون آخر . فشكل بلاد اليونان الجغرافي قسم سكانها في اول الامر الى ممالك صغيرة حتى اذا بطلت الحروب الناشبة بينها سارت معًا راقية سلم المدنيَّة ثم نشبت فيها الحروب الاهليَّة فوقف سير التمدن حتى غلبها العدو على امرها فعادت الى الاتحاد وزالت منها المساواة (وهو ما اجتهد الحكماء اليونانيون في تلافيهِ) حتى قضي على التمدن اليوناني وعلومهِ واصبح اثرًا بعد عين. وقد كان هذا حال تمدن المملكة الرومانيَّة فان عدم المساواة قد فعل بها فعلهُ الذريع وامانها قبل ان هاجمها برابرة الشمال بزمان طويل

ويمتاز التمدُّن الحديث الاوربي على ما سلفهُ بانهُ سار هو والمساواة معًا بسبب انقسام الممالك عقب مهاجمات القبائل الشماليَّة وبسبب تعاليم الديانة المسيحيَّة ألتي المساواة من اعظم

اركانها . ثم ان تحريم الزواج على الكهنة في الكنيسة الرومانية اباح الوظائف الدينيَّة العالية للجميع وحظر الاستئثار بها على فريق دون آخر بخلاف ما لو كان رؤساء الكهنة يتزوجون فانهم يتركون مناصبهم لاولادهم حينئذٍ

وتمدن الايام الحاضرة لايقتصر على اجتماع الناس في بلاد واحدة وتكافئهم في الاعمال بل يتناول توسيع نطاق التجارة ٱلَّتي تربط الممالك وتوطِّد دعائم السلم وسن الشرائع الدوليَّة ٱلَّتي تجعل الحقوق متبادلة وتؤمن كل امرء على دمهِ ومالهِ وكل هذا ممَّا يسهل على الانسان البقاء في قيد الحياة ويعطيهِ فرصةً للاختراع والاكتشاف

ومما تهمُّ معرفتهُ ويرتاح العقل الى البحث فيهِ هو كيفيَّة انقلاب التمدُّن الحاضر فان بقاءهُ على حالٍ واحد رابع المستحيلات واذا ظلَّ سائرًا كما هو الآن فلا بدَّ من ان يلحق بما سلفهُ. وقد تقدَّم ان سبب انقلاب التمدُّن الروماني هو عدم المساواة في الغنى والقوة وهذه العلة نفسها قد ظهرت في تمدُّننا وهي اشد فعلاً حيث التمدُّن قد بلغ غايتهُ . ونتيجة ذلك ان الاجرة والربا في تناقص والايجار في ازدياد وان الاغنياء يزيدون ثروةً والفقراء فقرًا ومتوسطي الحال على وشك الاضمحلال

وقد يصعب على المرء ان يسلم بزوال التمدن الحاضر فقد ارتأى المؤرخ جيبون ان التمدن الحالي باقٍ الى الابد لانهُ لا يوجد الآن شعبٌ متوحشٌ يُقدِم على هدمهِ . والجمهور على ان اختراع الطباعة قد حفظ العلم من الضياع وسيحفظ معهُ التمدُّن . ولو راجعنا التاريخ الحديث لرأينا التمدن والمساواة ادبيًّا وسياسيًّا سائرين معًا وصفحات التواريخ الحديثة مشحونة باسماء الابطال الذين ضحوا انفسهم في ابطال الرق وتعزيز حريَّة الاديان وحريَّة المطابع واستبدال الحكومات المطلقة بالحكومات الدستوريَّة او الجمهوريَّة. واوضح مظهرٍ لهذه المساواة الولايات المتحدة الاميركيَّة ٱلَّتي بني دستورها على العدل والمساواة . ثم ان المساواة السياسيَّة تقتضي اصلاً المساواة في الثروة والقوة غير انهُ قد ظهر بالتجارب انها حاجز غير حصين ضد حصر الاملاك بفئة دون اخرى واذا لم يتلافَ هذا الشر العظيم فسد نظام الجمهوريَّة واصبحت شرًّا من الفوضى

وتغيير الحكومة الجمهوريَّة الى حكومة استبداديَّة لا يستلزم تغيير نظامها البتة بل تبقى النيابيَّة في الظاهر برضى العموم وهذا ممَّا يزيد مضارها . لان الاغنياء وهم الاقلون يستعملون الرشوة في الانتخاب والفقراء وهم عموم الشعب لا يمتنعون عن قبول دريهمات قليلة يسدُّون بها رمقهم ويبيعون حريتهم فينتخبون من يريدهُ الاغنياء فتنحصر السلطة في

اناس يحكمون باسم الشعب ولضرر الشعب . واذا اعتاد الشعب على الانتخاب بالرشوة فقد عزة النفس والشهامة واصبح آلة بيد من يرشيه ومتى عمّ هذا البلاء واستفحل كان القاضي على حياة الشعب كله

وهذا التغيير الوخيم العاقبة قد ابتدأ في الولايات المتحدة الاميركيّة وهو سائرٌ فيها بسرعة . فالاغنياء فيها يعينون الحكّام والولاة كما يعينون المستخدمين في بيوتهم التجاريّة . ومن هم يا ترى هؤلاء الاغنياء أهم الذين حازوا على ثقة اهل وطنهم لغيرتهم على الوطن ولشرفهم الباذخ او لاتساع معرفتهم بنظام الحكومات — كلاّ بل هم الذين حازوا على ثروة وافرة من بيع الخمور والمضاربة وما اشبه ولا ينتخبون الاّ من كان نظيرهم . ولو قام في الولايات المتحدة اليوم وشنطون او فرنكلين او نحوهما من الفضلاء لما حاز اقل الوظائف لان امانتهُ تكون حاجزًا ضدّ استخدامه . وانحصار الصناعة واستخراج المعادن بفئة قليلة جعل لتلك الفئة سلطة قويّة على الانتخابات اذ ان اصواتها معززة باصوات الالوف من العمال الذين في خدمتها

ويستحيل علينا بعد هذا كله ان نقول باننا قد بلغنا ذروة التمدّن اذ نرى امامنا السكك الحديديّة والسفن البخاريّة ونحو ذلك من علامات التمدن لان الدلائل متوفرة على اننا متقهقرون الى دور الهمجيّة والخشونة بسرعة لا مزيد عليها

ولنضرب مثلاً آخر على صحة ذلك وهو ان من الشرائع القديمة في اوربا ان القاتل يدفع دية بالنسبة الى مقام المقتول — ويستشهد بعضهم بذلك على ان القدماء كانوا متوحشين لبخس قيمة الحياة عندهم وان شرائعنا الّتي تساوي بين الرفيع والوضيع هي اصدق دليل على تقدمنا . وقد سها على المعترض ان غرامة القتل يدفعها القاتل اليوم الى المحامين وشهود الزور فتبرأ ساحتهُ ويخرج ظافرًا منصورًا . هذا هو حال العدالة الآن في العالم اجمع

وحال اوربا المثقلة بالديون والجيوش الجرّارة اصعب من حال اميركا اليوم . فنظاماتها القديمة وجيوشها الجرارة تضغط عليها ضغطًا شديدًا ونيران الفقر تستعر تحتها استعارًا ولا يمضي زمن طويل حتى تنفجر مراجلها وتمزق شملهما . واذا شئت ان تعرف من هم المتوحشون الذين سيدمرون التمدن الحديث فجُلْ في اسواق المدن الكبيرة ترهم افواجًا افواجًا وهم الفقراء الذين حُرموا من امتلاك الارض . وسيبطل الناس التعليم وتحرق الكتب وتعفو آثار التمدن الحالي الذي لم يدوّن على الاحجار العظيمة كتمدن

مصر القديم بل في اوراق سريعة الاحتراق . وعقول المخترعين الذين اهدوا الى العالم الآلة البخارية والمطابع اهدوا اليهِ ايضاً البارود والديناميت وغيرهما من فواعل الخراب والدمار . ولا يستلزم التقهقر ابطال الشرائع والقوانين ولا رجوع الناس القهقرى في السبيل الذي تقدموا بهِ . فالبلاد الجمهورية اذا تأخرت تصير الى الفوضى وليس الى الملكية المطلقة التي نشأت منها والعلم الحديث يصير اشبه بعلوم الصين منهُ بعلم الفيلسوف باكون وخلافهِ من رائدي العلم الحديث

وهذا التقهقر قد ابتدأ منذ الآن فقد اعيد جزاء الجلد الى قانون العقوبات الانكليزي في بعض الجرائم وهو دليلٌ على ان حكومة تلك البلاد قد اضطرت الى اتخاذ اجراءات صارمة جداً لمنع الحوادث المخلة بالامن لان العقوبات المادية قد فقدت مفعولها ولا يبعد ان تعيد التعذيب في استنطاق المتهمين اذا قست القلوب وكثرت الشرور . وقد ضعف الاعتقاد بالخالق والدينونة وهذا الاعتقاد كان يمنع الانسان عن الشرور . وصار عامَّة الناس اشبه شيء بقدرٍ يجيش من نيران الشر ومن الفقر المدقع . وقد ساءت احوال العامَّة الصحيَّة فكثرت الوفيات وقل عدد المصرين منهم . وكل ذلك ادلة جليَّة على التقهقر الادبي والجسدي . ولا يبعد ان يدوم العالم بعدُ زماناً قبل ان يلبس الناس جلود الحيوانات ويأوون الى الكهوف والمغائر فحرارة الشمس تزيد بعد الزوال اي عند ما تكون قد مالت الى المغيب والجنس البشري يرجع القهقرى والاستمرار على قدمٍ وساق والاختراعات في ازدياد انما ما دامت السجون وبيوت الفقراء والبيمارستانات تزداد بازدياد السكان فحالنا صائرةٌ الى الهمجيَّة لا محالة والله بالعاقبة عليم

تلوُّن الحيوان

لا يخفى ان الحرباء يتلوَّن الواناً مختلفة فيكون اخضر ثم يكدرُّ لونهُ رويداً رويداً الى ان يصير رمادياً او اسود فاحماً . وهذه الصفة غير خاصَّة بالحرباء بل يشاركهُ فيها حيوانات أُخرى ولو لم تشتهر بها اشتهارهُ ومن ذلك الضفدع فانها تكون خضراء ثم يكدرُّ لونها كالحرباء

وقد كتب الدكتور جمس دير فصلاً موجزاً في هذا الموضوع جمع فيهِ اكثر الحقائق التي عُرفت حديثاً وعلل تلوُّن هذه الحيوانات وممَّا قالهُ في هذا الصدد ان جلد